أسس ومبادئ المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

Burhan Ali
Universitas Hasan Tsani Ain Chok- Casablanca Morocco
bur7anali@gmail.com

الملخص

السبب الذي جعلني أكتب في هذا الموضوع "أسس ومبادئ المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم". إن المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام متقدم من حيث مبادؤه ومقوماته، وعلى مجتمعنا الحاضر أن يصير كما كان في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي وصف القرآن بخير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. هذا البحث يقوم على المنهج الوصفي و الناتجة من هذا البحث إن الدين الإسلام هو روح المجتمع في المدنية المنورة في كل زمان ومكان، فدين الإسلام دين المدنية الحقة، إن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي تسوده روح الإسلام وبتعاون أعضاؤه –أيا كانت ديانتهم- فيما يحقق الخير للمجتمع.

مفتاح الكلمات: أسس ومبادئ، المجتمع الإسلامي، عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم

المقدمة

فإن المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو أحسن نموذج في الأرض، لأنه نَظم علاقة الإنسان بربه كما نَظم علاقته بمن حوله من الناس وما حوله من الأشياء وكَفل تطبيقه سعادة الدنيا والآخرة، عن عِمران بن حُصَين قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إن خيركم قرني، ثم الذي يلونهم، ثم الذي يلونهم، ثم الذي يلونهم ثم يكون بعدَهم قوم يَشهدون ولا يُستشهدون»[1]. إن المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام متقدم من حيث مبادؤه ومقوماته، وعلى

[1]. صحيح البخاري، كتاب الرقاق رقم الحديث 6428؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث 1437

مجتمعنا الحاضر أن يصير كما كان في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي وصف القرآن بخير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

دراسة هذا البحث يقوم على المنهج الوصفي، هذا وقد جعلت هذا البحث في ثلاثة فصول هي :يتضمن المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، و أسس المجتمع الإسلامي في المدينة، و مبادئ الإصلاحية للمجتمع الإسلاميز.

المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم

جاء محمد صلّى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين، وكان ظهوره في جزيرة العرب القاحلة الجرداء، التي قلت فيها الحضارة والرقى وكثرت الحروب والغارات، جاء عليه السلام فكوّن في هذا المجتمع. وفي الجزيرة المتنافرة أول مجتمع إسلامي، جاء محمد صلّى الله عليه وسلّم بدينه، وشريعته، وأخلاقه، ورحمته في البلاد الذي كان الرجل يعبد الأصنام، ويأكل الميتة ويأتي الفواحش ويقطع الأرحام ويأكل القوي منه الضعيف حتى بعث الله تعالى رسولا فجاء بدين الإسلام.

المبحث الأول: الإسلام روح المجتمع

الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي يرافق العقل جنبا لجنب ويتمشى مع المجتمع في طريق واحدة ويصافح الإنسانية يدا بيد، وهو الدين الذي رفع منار الحقيقة على ذروة لا تنال وشاهق لا مطمع فيه لا قوي النسور فكيف ببغاث الطير، وهو الدين الذي رفع شأن الإنسانية من خضيض الهوان إلى ربوة العز والشرف، وهو الدين الذي أخذ بيد الضعيف حتى أذل من عسف القوي وظلمه، فتساوى الفريقان وتآخى القبيلان واستوى القومان بجميع الحقوق المجتمع، فلا فارق بين ضعيف وقوي وفقير وغني إلا بما منحه الله تعالى من ذكاء الفطرة والتقوى والعمل

الصالح، كما جاء في القرآن الشريف: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ »[2]، وقال محمد صلّى الله عليه وسلّم: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[3].

دين الإسلام هو الدين الذي خلص الناس من عقيدة الشرك وتكثير الأرباب، وأزال عنهم برفع الخرافات المضللة وكسر عن عقلهم قيود الأوهام، ونجّاهم من فساد الأخلاق. وطرد عنهم تلك الظلمات التي أظلّتهم سنين عديدة. بما بثه فيهم من أنوار الهداية والتعاليم القويمة. فتهذبت نفوسهم وحسنت عقيدتهم ونما في قلبهم حب الرحمة والرأفة، فرأوا من أجل ذلك نور الحق يتلألأ في سماء قلوبهم، ويتبلّج بين عقولهم التي كانت مظلمة بفساد التربية وسوء الأخلاق وشؤم العقيدة[4].

نتج مما تقدم أن الدين الإسلامي هو روح المجتمع المدنية في كل زمان ومكان. فالدين الإسلامي دين المدنية الحقة، ومحمد صلّى الله عليه وسلّم وكتابه هما السبب الأعظم لتخليص العرب والعالم من سلاسل الجهل وكسر قيود الإنحطاط الدنيا والأدبي والمادي والشرك والعقيدة والأخلاق عن عقول أهلها.

المبحث الثاني: الإسلام في العهد المكي

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة، والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرا وشدة عما لو كان بعيدا عنها. كان من الحكمة تلقاء ذلك أن الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم[5].

[2]. الحجرات، 13

[3]. أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث :23536

[4]. الإسلام روح المدنية، ص 14-17

[5]. الرحيق المختوم، ص 52

وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء: خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبناه، وأبو بكر بن أبي قحافة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص... وغيرهم رضي الله عنهم جميعا[6].

فكان هؤلاء يلتقون بالنبي صلّى الله عليه وسلّم سرا وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفى فيها عن أنظار قريش[7]. وقد ذكر ابن هشام أن النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب مكة، فيصلون الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعوا، وقد رأى أبو طالب النبي صلّى الله عليه وسلّم وعليا يصليان مرة، فكلمهما في ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات[8]. ثم لما أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين – ما بين رجل وامرأة- اختار لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دار أحدهم، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم[9].

المبحث الثالث: الإسلام في العهد المدني

أن المجتمع الإسلامي الأول تكوّن في المدينة لا في مكة، فقد كان المسلمون قبل الهجرة قلة بمكة يعيشون فيها أحيانا، ويهاجرون منها فرارا بدينهم أحيانا أخرى فلم يكونوا من القوة ولا من العدد بحيث يكونون مجتمعا، وعلى هذا فلم تكن مكة هي المدينة الإسلامية الأولى، وإنما كانت يثرب هي المدينة التي تكون بها أول مجتمع إسلامي[10].

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب، بل كانت الهجرة مع هذا تعاون على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن. ولذلك أصبح فرضا على كل مسلم قادر أن يسهم في

[6]. فقه السيرة للبوطي، ص 67؛ والرحيق المختوم، ص 52

[7]. فقه السيرة للبوطي، ص 67

[8]. سيرة النبوية لابن هشام؛ ج1، ص 317

[9]. فقه السيرة للبوطي، ص 68؛ وانظر سيرة النبوية لابن هشام، ج 1، رقم النص: 261/249

[10]. المجتمع الإسلامي، ص 39

بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة شأنه. ولا شك أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع.

والأقوام التي كان يواجهها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المدينة كانت على ثلاثة أصناف، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافا واضحا، وكان يواجهه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى الأخرى.

والمسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه المسلمين هي أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماما عن الظروف التي مروا بها في مكة. فهم وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة. وكانوا يستهدفون إلى أهداف متفقة، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى، مقهورين أذلاء مطرودين، لم يكن لهم من الأمر شيء، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم في الدين. فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن يقيموا مجتمعا إسلاميا جديدا بمواده التي لا يستغني عنها أي مجتمع إنساني في العالم. ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية، وعلى التشريعات التي يمكن العمل لها لكون فرد وحده، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق، والاجتناب عن الرذائل والدنايا[11].

أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمران. وبمسائل المعيشة والاقتصاد، وبمسائل السياسة والحكومة، وبمسائل السلم والحرب، وبالتنقيح الكامل في مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك في مسائل الحياة[12].

[11]. الرحيق المختوم، ص 127

[12]. المصدر السابق، نفس الصفحة

كان قد آن لهم أن يكونوا مجتمعا جديدا، مجتمعا إسلاميا، يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي، ويمتاز عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني، ويكون ممثلا للدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون الوانا من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات.

ولا يخفى أن تكوين أي مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يسبب في يوم واحد، أو شهر واحد، أو سنة واحدة، بل لابد له من زمن طويل، يتكامل فيه التشريع والتقنين مع التثقيف والتدريب والتربية تدريجيا. وكان الله كفيلا بهذا التشريع، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائما بتنفيذه، والإرشاد إليه، وتربية المسلمين وفقه. هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ [13]. وكان الصحابة رضي الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم، يتحلون بأحكامه ويستبشرون بها: وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَـٰنًا [14].

المبحث الرابع : الطوائف في المدينة عند الهجرة النبوية

عندما وصل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، وكانت لديهم خلافات بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، قد كانت هذه المجموعات على ثلاثة أصناف[15].

1- المسلمون، من :الأوس، والخزرج، والمهاجرين.

2- المشركون، من : الأوس، والخزرج، والذين لم يدخلوا في الإسلام.

3- اليهود، وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، بنو قريظة، بنو نضير.

كان أهم سكانها فريقين: العرب، واليهود. أما القوم من أصناف الثاني –وهم المشركون من صميم قبائل المدينة- فلم يكن لهم سيطرة على المسلمين، وكان منهم من تخالجه الشكوك، ويتردد

[13]. الجمعة، 2

[14]. الأنفال، 2

[15]. الرحيق المختوم؛ ص 127-129

في ترك دين الآباء ولكن لم يكن ببطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله[16].

فإن الرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين قدم المدينة كان أهم سكانها كتلتين من السكان هم العرب واليهود. وسأتحدث عن أهم قبائل الكتلتين:

الأول: القبائل العربية

كان عرب المدينة في غالبهم ينتمون إلى قبيلتين: إحدهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج. وهما أخوان، وكان بين أولادهما من العداواة ما يجعل الحرب بينهما لا تضع أوزارها. وكانوا دائما في قتال ونزاع. وكان آخر أيامهم الدامية، يوم بعاث فقد فقدوا فيه كثير من أموالهم ورجالهم[17]. وقد سكن الأوس منطقة العوالي، وكانت منازلهم أخصب من منازل الخزرج.

الثاني: قبائل اليهود[18].

1. بنو قينقاع: وقد سكنوا القسم الجنوبي الغربي من المدينة. أي سكنوا منطقة السافلة. وكان أول من أجلاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد أن نقضوا العهد الذي بينه وبينهم[19].
2. بنو النضير: وقد سكنوا حرة واقم شرقي المدينة. وهي من أخصب المناطق، أي سكنوا منطقة العوالي. وقد نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[20].
3. بنو قريظة، وقد سكنوا في حرة واقم بالقرب من مساكن بين النضير. وقد قاتلهم النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد أن نقضوا العهد، وتحالفوا مع الأحزاب على الغدر بالمسلمين من الداخل، فخيب الله ظنهم وتراجع الأحزاب خائبين إلى ديارهم وبقي اليهود في المدينة. نزل

[16]. المصدر السابق، ص 128

[17]. الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، ص 20

[18]. المصدر السابق، ص 24

[19]. فقه السيرة للبوطي، ص 180

[20]. المصدر السابق، ص207

جبريل عليه السلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخبره بأن الملائكة لم تضع بأسلحتها، حينئذ عزم رسول لله صلّى الله عليه وسلّم على المسلمين ألا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا بني قريظة[21].

أسس المجتمع الإسلامي في المدينة

لقد كانت هجرة رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم إلى المدينة، تعني نشأة أول دار إسلام إذا ذاك على وجه الأرض، وقد كان ذلك إيذاناً بظهور المجتمع الإسلامي بإشراف مؤسسه الأول محمد عليه الصلاة والسلام. ولذا، فقد كان أول عمل قام به الرسول صلّى الله عليه وسلّم، هو وضع الأسس الهامة لهذا المجتمع، وهي:

المبحث الأول: بناء المسجد

كانت أولى الخطوات التي اعتمد عليها الرسول لتكوين المجتمع الإسلامي بناء مسجد المدينة، روي عن أنس بن مالك أن نزول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة في بني النجار، وأنه نزل في أرض أمام دار أبي أيوب، إذ بركت ناقته صلّى الله عليه وسلّم في موضع كان لغلامين يتيمين من الأنصار، وكان أسعد بن زرارة قد اتخذه مصلى قبل هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة، فكان يصلي بأصحابه فيه.

فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يبني في ذلك الموضع مسجدا، ودعا الغلامين –وكانا في كفالة أسعد بن زرارة رضي الله عنه- فسام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى ابتاعه منهما[22].

وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين، فأمر رسو الله صلّى الله عليه وسلّم بالقبور فنبشت والنخيل والشجر فقُطعت، وصفّت في قبلة المسجد[23].

[21]. المصدر السابق، ص 245

[22]. فقه السيرة للبوطي؛ ص 151

واشترك المسلمون جميعا في البناء، وعلى رأسهم إمامهم محمد صلّى الله عليه وسلّم وكان أول عمل تعاوني عام، وحّد بين القلوب، واظهر الهدف العام للعمل.

إن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي، وقد كان لكل حي في المدينة – قبل قدوم النبي صلّى الله عليه وسلّم - مكان يلتقون فيه، فيسمرون ويسهرون، وينشدون الأشعار، فكانت هذه الحال تدل على الفرقة والإختلاف، فعندما بُني المسجد كان مركز المسلمين جميعا، ومكان تجمعهم، يلتقون به في كل وقت، ويسألون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيعلمهم ويرشدهم ويوجههم.

وذلك لأن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدبه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه. ولم يكن المسجد موضعا لأداء الصلوات الخمس فحسب، بل كان جامعة يتلقي فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ويجتمعون فيه، وتلقي فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها وقاعدة لإدارة جميع الشؤون، وبث الانطلاقات، وموضعا لعقد المجالس الإستشارية والتنفيذية.

وكذلك إن من نظام الإسلام وآدبه شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا في المسجد، فيما لم يتلاق المسلمون يوميا، على مرات متعددة في بيت من بيوت الله، وقد تساقطت مما بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار، لا يمكن لروح التآلف التآخي أن تؤلف بينهم[24].

إن من نظام الإسلام وآدبه، أن تشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين في مختلف شؤونهم وأحوالهم، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم مالم يتلاق المسلمون كل يوم صفا

[23]. رواه البخاري في صحيحه كتاب مناقب الأنصار، رقم الحديث: 3932

[24]. فقه السيرة للبوطي، ص 153

واحدا بين يدي الله عزوجل، قد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية له. وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلا له، ومهما انصرف كل مسلم إلى بيته يعبد الله ويركع ويسجد له دون وجود ظاهرة الاشتراك والاجتماع في العبادة، فإن معنى العدالة والمساواة لن يتغلب في المجتمع على معاني الأثرة والتعالي والأنانية[25].

وإن من نظام الإسلام وآدبه أن ينصهر أشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه، ولكن مالم تقم في أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمن على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم، فإن وحدتهم يؤول إلى شتات، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء.

فمن أجل تحقيق هذه المعاني كلها في مجتمع المسلمين ودولتهم الجديدة أسرع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل كل شيء فبادر إلى بناء المسجد.

المبحث الثاني: المؤاخاة بين المسلمين

كما قام النبي صلّى الله عليه وسلّم بالبدء ببناء المسجد، قام صلّى الله عليه وسلّم في تكوين المجتمع الإسلامي في المدينة بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. وكانت هذه الخطوة استجابة لقوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ [26]. آخى بينهم صلّى الله عليه وسلّم في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على الحق والمساواة. وتوارثون بعد الموت دون ذوي

[25]. المصدر السابق، نفس الصفحة

[26]. الأنفال، 72

الأرحام إلى حين وقعة بدر. فلما أنزل الله عز وجل: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ [27]، رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة[28].

فجعل جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وجعل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وجعل أبا بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين وهكذا[29].

ومعنى هذا الإخاء – كما قال محمد الغزالي – أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذه الأخوة عقدا نافذا، لا لفظا فارغا، وعملا يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر. وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[30].

ومن هذا يتضح أن هذه المؤاخاة كان من نتائجها التوارث بين الأخوين والتعالق والإيناس، وقد وضعت الآية الكريمة -وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض- حدا للتوارث بين الأخوين من هذه النوع، ولكننا نجد هذه المؤاخاة قد قويت وتأصلت بين كثير من هؤلاء حتى إن حمزة بن عبد المطلب كتبت وصيته قبل أن يخوض غمار الحرب يوم أحد لأخيه زيد بن حارثة[31].

وبهذه المؤاخاة انصهرت هذه المجموعات وهؤلاء الأفراد في بوتقه الإسلام وتشكلت منها أسرة اسلامية جديدة متحابة متعاونة، يربطها رباط التوحيد وتقوى بينها مواثيق الحب والتعاطف، وقد نسي كل من هؤلاء نسبه وعصبيته ونزعاته الجاهلية، وتطلعوا جميعا إلى النسب السامي وهو

[27]. الأنفال، 75

[28]. الرحيق المختوم، ص 133

[29]. فقه السيرة للبوطي، ص 156

[30]. فقه السيرة للغزالي، ص 138

[31]. المجتمع الإسلامي، ص 60

العلاقة الاسلامية والرباط الديني المتين ومن العجيب أن الزمن مر، وتتابعت الأحداث، وتغيرت الظروف التي دعت للمؤاخاة في هذا الوقت العصيب وهذا المحيط الضيق، ولكن هؤلاء الإخوة لم ينسوا المؤاخاة التي عقدها الرسول بينهم[32]. إنه فضل الله تعالى وقدرته التي مافوقها قدرة، وقد صور القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا [33]، وقوله تعالى :وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [34]. وهذا هو الأساس الثاني الذي اعتمده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سبيل بناء المجتمع الإسلام والدولة الإسلامية.

المبحث الثالث: المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين (كتابة الدستور)

وهذا الأساس هو أهم ما قام به النبي صلّى الله عليه وسلّم مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة[35]. وفي ضوء هذا المبدأ عقد الرسول معاهدة بين المسلمين وبين اليهود وأقليات أخر صغيرة كانت تعيش في المدينة، وتعتبر هذه المعاهدات الدولية وأمتعها وأجدرها بتقدير الناس جميعا على اختلاف أديانهم، وهي بالإضافة إلى ذلك تنير السبيل للمسلمين، وتبين لهم كيف يتعاونون مع اتباع الأديان السماوية الأخرى، ويكونون معهم وحدة تتمتع كل مجموعة فيها بالحرية الدينية[36].

لهذه الوثيقة دلالات هامة تتعلق بمختلف الأحكام التنظمية للمجتمع الإسلامي، ونلخصها فيما يلي:

[32]. المصدر السابق، نفس الصفحة
[33]. آل عمران، 103
[34]. الأنفال، 63
[35]. فقه السيرة للبوطي، ص 160
[36]. المجتمع الإسلامي، ص 62

1. هذا الدستور الذي وضعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بوحي من ربه واستكتبه أصحابه رضي الله عنهم، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيها بين المسلمين وجيرانهم اليهود – حسبنا ذلك دليلا على ان المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة[37].
2. إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي صلّى الله عليه وسلّم لليهود، ولقد كان بالأمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود[38].
3. طلبت الوثيقة إرجاع الحكم في الاختلاف إلى الله تعالى وإلى محمد صلّى الله عليه وسلّم، وذكر الله تعالى في هذه الوثيقة يسبغ عليه صفة قدسية عليا على كافة المسلمين واليهود. فهو قائم على المبادئ الدينية المعززة للأخلاق، والمصالح العامة التي تتجلى في جانبها العلمي على ما نزل فيه القرآن: أي على المبادئ الإسلامية التي يحددها ما أنزله تعالى على الرسول صلّى الله عليه وسلّم[39].
4. دلت هذه الوثيقة على أهم معالم القيم الحضارية في المجتمع الإسلامي[40]:

أولا، الأمة الإسلامية فوق القبلية ، ثانيا،التكافل الإجتماعي بين فصائل الشعب،ثالثا، ردع الخائنين للعهود، رابعا، احترام أمان المسلم. خامس، :حماية أهل الذمة والأقليات غير المسلمة، سادس، :الأمن الاجتماعي وضمان الديات ، سابعا، المرجعية في الحكم إلى الشريعة الإسلامية،ثامنا :حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل الشعب، تاسعا :الدعم المالي للدفاع عن الدولة مسؤلية الجميع،عاشرا :الاستقلال المالي لكل طائفة، الحادي عشر :وجوب الدفاع المشترك ضد أي عدوان ، الثاني عشر :

[37]. فقه السيرة للبوطي، ص 162
[38]. المصدر السابق، ص 163
[39]. صحيفة الرسول [ص] لأهل المدينة، في مجلة مجمع اللغة العربية الأردوني
[40]. المصدر السابق

النصح والبر بين المسلمين وأهل الكتاب:، الثالث عشر، حرية كل فصيل في عقد ، الرابع عشر :ووجوب نصرة المظلوم، الخامس عشر :وحق الأمن لكل مواطن.

المبحث الرابع: أسس النظام السياسي (الشورى).

وضع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في ذلك العهد المبكر أسس الحكم في المجتمع الإسلامي في مختلف الشؤون، والدعامة الرئيسة لهذه الأسس هي اتباع النص الصريح إذا وُجد، فإذا لم يوجد فالشورى والإجتهاد[41].

في بعض الأحوال كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يتلقى جوابا من الله تعالى وكان ذلك يعتبر إيذانا من الله تعالى بالاجتهاد لمحاولة ايجاد حل لهذه المسألة. فكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يجتهد ويستشير أصحابه رضي الله عنهم وتدلنا الروايات التاريخية أنه كان يكثر من استشارته لهم. وفي ضوء اجتهاده واستشارته كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يصدر قضاءه في المسائل التي لم ينزل فيها قرآن. فإن صادفه التوفيق في قضائه كان بها، وإن أخطأه التوفيق نزل الوحي معلما. وحينئذ يدع الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما قضى به على حالة تقدير القيمة الاجتهاد.

وهكذا فقد كان المجتمع يسير على هدى القرآن والحديث وهدى الشورى التي كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يركك إليها ويسأل أصحابه رضي الله عنهم رأيهم ويستفيد بأفكارهم عند ما لا يوجد نص قرآني يعتمد عليه، وكان ذلك عملا بقوله تعالى: وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ [42]. الشورى من قواعد

[41]. المجتمع الإسلامي، ص 65

[42]. آل عمران، 159

الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. وقد مدح الله المؤمنين بقوله تعالى: وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ [43].

إن المتتبع لسيرة الرسول الكريم وصحابته رضوان الله عليم يجد صورا رائعة من الحب المتبادل، والثقة والود والتناصح، ثم يرى مدى صفاء نفوس الناس وحبهم الخير لعموم الناس، ويرى كذلك مدى اقتداء الصحابة وتأسيهم بالنبي صلّى الله عليه وسلّم وهو الذي يقول لهم: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[44].

أمر أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر، فامتثل صلّى الله عليه وسلّم هذه الأوامر كلها أتم امتثال، فكان يشاورهم في الأمور الخاصة العامة. في الحرب والسلم، في التخطيط التدبير وشاور الكبار والصغار، الخاصة والعامة حتى يكون ممتثلا لأمر ربه، وأسوة لأمته من بعده، وحتى يتيح لهم حرية الرأي المثمر، وحتى يظهر أهل الرأي النير، وتتنافس القرائح في الاجتهاد وتحصيل الصواب، فيقتدى به من بعده من أمته ممن هداه الله كل ذلك وغيره من أهداف الشورى وثمراتها[45].

ولنأخذ أمثلة من مشاورته صلّى الله عليه وسلّم مع اصحابه في ميدان عامة خاصة، ففي الحرب مثلا جاء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شاور أصحابه حين بلغه اقبال أبي سفيان[46]... يريد إقباله بالعير من الشام.

ولما بلغه خروج قريش استشار أصحباه فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانيا، فتكلم المهاجرون فاحسنوا، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم. قال الإمام النواوي: "وفي استشارة الاصحاب

[43]. الشورى، 38
[44]. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 13
[45]. الرأي والمشورة، ص 18
[46]. صحيح مسلم بشرح النووي، ج 12، ص 124

وأهل الرأي والخبرة"[47]. ومراده بهم هنا أبو بكر، وعمر وسعد بن عبادة حيث تكلم منهم فأحسن الكلام إلا أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يريد الأنصار بهذه المشورة لحكمة خاصة إذ هو قادم على حرب ولم يكونوا بايعوه على الحرب معه. لذا لما أبدوا استعدادهم على لسان زعيمهم أشرق وجهه الشريف وسره كلام سعد رضي الله عنه[48].

وهكذا نراه صلّى الله عليه وسلّم لم يفوت لأصحابه شيئا من أمر هذه الغزوة ثم يجتهد هو صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك في الآراء فيأخذ بما يراه أليق ولروح الشريعة أوفق، والله يسدده ويبين له الاصوب من الصواب.

أما مثال استشارة في الشؤون الخاصة: جاء في صحيح البخاري رحمه الله تعالى: "وشاور عليا وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة فسمع منه[49]. وعن عائشة رضي الله عنها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا –قالت: ودعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علي بن ابي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهم حين استلبث الوحي يسألهما وهو يستشيرهما في فراق أهله[50]. وهكذا كان صلّى الله عليه وسلّم يوضح الأمور للناس وستشيرهم ويأخذ بما يراه حتى ينزل وحي فيكون هوالمرجع.

المبحث الخامس: أسس النظام الإقتصادي

في هذه الفترة وضعت الأسس الإقتصادية للإسلام ووسيلتها لتحقيق العدالة الإجتماعية، وهي:

1. مبدأ الملكية الفردية

يقر الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذي حصل عليه مسلم بالطريق المشروعة، ويقر الإسلام كذلك التفاوت في الغني بقدر الجهد الذي يبذله كل مسلم. وبقدر التوفيق الذي يصادفه،

[47]. المصدر السابق، نفس الصفحة
[48]. المصدر السابق، نفس الصفحة
[49]. فتح الباري، ج 13، ص 339
[50]. المصدر السابق، نفس الصفحة

وقد ورد القرآن الكريم مقررا هذا التفاوت، قال تعالى: "وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ [51]" وقال تعالى" نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ [52]"

وعلى هذا فالإسلام يجيز الملكية الفردية، ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعية، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع، ويحرس الإسلام هذه الملكية وينقلها إلى ورثة المالك عن نظام الميراث في الإسلام ولا يجيز الإسلام للحكومة التدخل في هذه الملكيات إلا إذا تعارض مع الصالح العام، ويكون تدخل الحكومة حينئذ بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذي أقره الإسلام وبين المصلحة العامة التي هي أيضا أساس من أسس التشريع الإسلام.

2. المال مال الله تعالى

يقر الإسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول، ولكن المقصود من هذا االتعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين، أو أنه ملكية الظاهر أو ملكية الانتفاع. أما المالك الحقيقى لكل شيء فهو الله سبحانه وتعالى: قال تعالى: وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا [53]. وكذلك قوله تعالى: لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ [54]. والمالك الأعظم الذي وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ [55]. منح حق الانتفاع أو منح الملكية الظاهرية التي نسميها الملكية الفردية إلى بعض خلقه[56].

على هذه الحقيقة الهامة وهي أن المال مال الله تعالى، استخلف فيه البشر، أن الإنسان ليس مطلق لتصرف فيما تحت يده، أو في الذي نطلق عليه مجازا أنه ملكه، ولو كان هذا الشيء ملكا خالصا للشخص لكان له أن يتصرف فيه على ما يحب، ولكنه في الحقيقة وكيل فيه، ولذلك

[51]. النحل، 71
[52]. الزخرف، 32
[53]. المائدة، 17
[54]. المائدة، 120
[55]. الإسراء، 111
[56]. المجتمع الإسلامي، ص 77

فهو يخضع في التصرف في هذا المال إلى نظم معينة وضعها المالك الحقيقي سبحانه وتعالى، وأهم هذه النظم ما يلي[57]:

3. مبدأ حق الفقير في مال الغني[58]

هذا المبدأ من أهم المبادئ في التشريع الإسلامي، ويهمنا أن نبرز هنا كلمة "حق " بمدلولها الكامل، فالذي يأخذه الفقير أو تأخذه الدولة من مال الغني ليس منحة، وليس عطاء، وليس تفضلا، ولكنه حق، فإذا نكص الغني عن تسليم ذلك لحق ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه.

وكلمة "حق" هذه وردت في القرآن بهذا النص إبرازا للمعنى قال تعالى: وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ [59]. وقوله تعالى: وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ [60]. وقوله سبحانه وتعالى: وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ[61].

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هي الحق الوحيد الذي يجب في مال الغني، فالحقيقة أن في مال الغني نوعين من الحقوق هما:

أ- حق محدد، ثابث، دائم، هو الزكاة؛ فهي مقادير محددة، في وقت معين، وتدفع في جميع الظروف، وهذا الحق هو القدر الأدنى في مال الغني.

ب- حق غير محدد، وغير ثابت، وغير دائم، وهو غير محدد أي يزيد وينقص حسب الحاجة وحسب مقدار الثروة، وغير ثابت أي ليس له وقت معين بل يطالب عند الحاجة، وغير

[57]. المصدر السابق، ص 80
[58]. المجتمع الإسلامي، ص 84
[59]. الإسراء، 26
[60]. الانعام، 141
[61]. الذاريات، 19

دائم أي يدفع عند حاجة الناس أو الدولة، ويسقط إذا لم توجد هذه الحاجة، ويمكن أن نسميه الإنفاق الواجب للمصالح العامة.

مبادئ المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم

إن المجتمع الإسلامي يقوم على اربع مبادئ التي هي الأسس الإصلاحية للمجتمع، وهي

المبحث الأول: العدل

في الإسلام نجد قيمة العدل عالية متألقة، تتصدر كل القيم الثوابت التي يدعو إليها الدين، فهو المقصد الأول للشريعة، وكل السبل التي تكفل تحقيقه هي سبل إسلامية شرعية، حتى لو لم ينص عليها الوحي أو ترد في المأثورات، بل إننا واجدون العدل اسما من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته سبحانه وتعالى[62].

من المثل العليا في الإسلام تكليف متبعيه بأن يحكموا بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الإعتبارات التي تحد من سلطانه، قال الله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا [63].

وهذه الشمول لفريضة العدل، والعموم لضرورتها، يحدثنا عنه رسول الله صلىّ عليه وسلّم عندما يدعوا الأباء إلى العدل بين أبنائهم في قوله "فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم"[64].

ويبين الله تعالى ما بعثت الرسل لأجل العدالة الإنسانية قال تعالى: لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ

[62]. الإسلام وحقوق الإنسان، ص 49

[63]. النساء، 135

[64]. رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة وفضلها و التحريض عليها، رقم الحديث: 2587

مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ [65]. فهذه الآية يبنت أن الله أراد بإرسال الرسل إقامة العدالة بين الناس على أساس ما أنزله إليه من الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين. وما أمرهم به من استعمال الميزان، لأنه به يتميز الحق من الباطل. وبه يحصل الناس على حقوقهم[66].

هذه هي مبادئ القرآن لإقرار العدالة في الارض، والتي يظهر لك من معناها وروحها بأنها ليست من كلام بشر بل من كلام الله الذي شرع الناس ما يسعدهم ويهديهم إلى السلام والطمأنينة في حياتهم.

المبحث الثاني: المساواة

وإذا نظرنا إلى ما شرعه الإسلام من مبدأ المساواة، فقد قرر الإسلام: مساواة الناس أمام القانون، ومساواتهم في الحقوق العامة السياسية وغيرها. فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود. ولا لغني على فقير، وبذلك قضى الإسلام على نظام الطوائف وأساليب التفرقة بين الطبقات في الحقوق والواجبات[67]. في ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ [68].

ففي هذه الأية يدعو الله الناس كافة، ولا يدعو قبيلة واحدة ولا أمة بعينها بل يدعو الناس بأصلهم الأول وهو آدم وحواء. ومن كان أبوهم واحدا وأمهم واحدة فلا محل لأن يُبدِيَ بعضهم السمو على البعض الآخر من ناحية الجنس. وأنهم وإن تفرقوا في البلاد واختلفوا في الأجناس واللغات والألوان، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوة الإنسانية، بل توجب عليهم أن

[65]. الحديد، 25
[66]. روح الدين الإسلامي، ص 301
[67]. روح الدين الإسلامي، ص 297
[68]. الحجرات، 13

يتعارفوا، والتعارف يدعو إلى التآلف والتواد والتعاون على تدليل عقبات الحياة[69]، قال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ[70]. وبهذا أعلن الإسلام الناس بالوحدة، من مقتضياتها المساواة بين الإنسان في الحقوق والواجبات[71].

هنا تشعر النفس الإنسانية بسموا هذا المبدأ، ويكاد هذا الشعور يدفعها إلى الأخذ به دون تردد ما يثور فيها من بقايا العصبية التقليدية من ادعاء كل شعب بأنه الأولى بالزعامة والأحق بالكرامة. هنا يتلقاه الشطر الأخير الذي تضمنته الآية وهو "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" أي لا تفاضل بين الناس إلا على أساس أعمالهم الصالحة، وإخلاصهم لله وعبادته وحده وما يقدمه كل منهم لأمته وللمجتمع الإنساني من خدمات وتضحيات[72].

إن التقوى معيار الكرامة الإنسانية عند الله عز وجل ومع ذلك فهي معيار الصلاح في الدنيا، وهو معيار حقيقي وعملي: إذ إن صلاح الإنسان في دنياه يجعله أفضل لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه من غيره الذي لا يفيد نفسه ولا مجتمعه بشيء، وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم في الدعوة إلى المساواة في حجة الوداع: "أيها الناس: إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى[73].

هذا هو مبدأ المساواة الذي ولد قبل أربعة عشر قرنا على يد الإسلام في بلاد العرب التي كانت أشد الأمم تباهيا بالأنساب.

---

[69]. روح الدين الإسلامي، ص 298

[70]. النساء، 1

[71]. الإسلام عقيدة وشريعة، ص 452

[72]. روح الدين الإسلامي، ص 298

[73]. أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث :23536

والرسول صلّى الله عليه وسلّم كان لا يفرق في الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ولا بين حر وعبد، فقد ولي بلالا على المدينة المنورة وفيها كبار الصحابة. وبلال مملوك سبق أن أشتراه أبو بكر وأعتقه. كما أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ولّى "بأذان" الفارسي على اليمن ولما مات ولى ابنه مكانه[74].

وكذلك بين النبي صلّى الله عليه وسلّم معنى المساواة حين شفع وجهاء من القوم، في إعفاء امرأة شريفة وجب عليها حد السرقة حتى لا توقع عليها العقوبة. فأبى النبي صلّى الله عليه وسلّم ذلك، ونبه إلى عدم جواز الشفاعة في حدود الله، لأن ذلك يخل بمبدأ المساواة بين الناس. ويؤدي إلى إيثار ذوي الوجاهة بإعفائهم من العقاب، مع إقامة الحدود على ضعفاء الناس. وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن ذلك الأمر إذا ساد في مجتمع أدى به إلى الزوال، فقال: "إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد يبده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[75].

فهذه مساواة بين الشرفاء والضعفاء في الحدود، فلا توضع عن شريف لشرفه إذا ارتكب ما يوجبها، ولقد بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن التفرقة بين الشرفاء والضعفاء في الحدود كانت العلة في ضلال الأمم السابقة. وأقامت الشريعة الإسلامية أصل المساواة في أحكامها، على النحو الذي يجعل هذا المبدأ وسيلة لرقي الإنسان، وتحصيل مصالح الحياة[76].

المبحث الثالث: السلام

يقرر الإسلام أن العلاقة بين المسلمين وبين الأفراد جميعا في المجتمع الإسلامي هي علاقة الود والرحمة، وعلاقة التضامن والتعاون وعلاقة الأمن والسلام. ويقرر ان القاعدة التي تقوم عليها حياتهم هي قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات، والتعادل بين المغانم والمغارم، والتوازن بين

[74]. المصدر السابق، ص 299

[75]. رواه مسلم في صحيحه باب : النهي عن الشفعة في الحدود، رقم الحيدث: 1046

[76]. روح الدين الإسلامي، ص 299

الجهد والجزاء. ويقرر أن الغاية المقدرة لهم جميعا هي امتداد الحياة، وإنما الحياة، وترقية الحياة والتوجيه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله خالق الكون والحياة.

ومن ثم ينتهي كل نشاط فردي، وكل نشاط اجتماعي، كما ينتهي كل تنظيم وكل إنتاج إلى السلام الكلي، الذي ينسق بين مختلف النوازع الاتجاهات، ومختلف الأفراد والجماعات، لأن هنالك أفقا أعلى من أفق المصالح الوقتية التي تثير الشحناء، وتؤجج العداوات[77].

والإسلام لا يقيم هذا السلام الشامل على حساب الفرد أو حساب الجماعة ولا يقيمه على أساس من مصلحة طبقة ضد طبقة أو سلطة ضد سلطة إنما يقيمه على حسابهم جميعا[78]. والآن فلننظر كيف يحقق الإسلام فكرته الكلية في السلام الشامل القائم على العدل الكامل في محيط الحياة.

وجدان الحب والرحمة

يبدأ الإسلام بناء المجتمع في ضمائر الأفراد ووجدانهم، فهناك في أعماق الروح يغرس بذرة الحب، وينسم نسمة الرحمة. الحب الإنساني الخالص والرحمة الإنسانية المبرأة. إنه يرد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة ويوقظ في وجدانهم شعور النسب والقربى، ويذكرهم أخوتهم في الله وفي المنشأ والمصير، وهذا الحب والرحمة تؤدي إلى السلام[79].

والرحمة ليست مطلوبة بالمسلمين وحدهم ولكنه للآدميين جميعا: "ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء" [80].

الأدب النفسي والاجتماعي

[77]. السلام العالمي والإسلام، ص 103

[78]. المصدر السابق، ص 105

[79]. المصدر السابق، نفس الصفحة

[80]. رواه أبو داود في سننه، رقم الحديث : 4941

ولكي يحقق الإسلام الحب والصفاء في النفوس والقلوب، فإنه يأخذ المسلمين بأداب نفسية وآداب اجتماعية تعين على هذه الغاية الإسلام يلحظ فى هذا طبائع النفوس، فهي تكره المتكبرين وتبغض المختالين، وتضيق بالمفتخرين المتباهين، وتحمل الغيظ والحنق والتبرم بهؤلاء الناس، ولو لم يقدموا لأحد مسأة شخصية. والإسلام يلحظ أدق مشاعر النفس حتى لينهى أن يتناجى أثنان في حضره ثالث لا يشترك في الحديث: إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى إثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس،من أجل أن يحزنه[81]. وهو أدب نفسي عال لطيف.

وهكذا يقوم الأدب النفس والاجتماعي بدوره في تصفية جو الحياة، وإشاعة المودة والألفة في النفوس، ويساعد في بناء السلام في المجتمع في عالم الواقع وعالم الشعور.

السلم مبدأ ومسلك وغاية في الإسلام

إن الإسلام دين المسلم وشعاره السلام، فبعد أن كان عرب الجاهلية يشعلون الحروب لعقود من الزمن. جاء الإسلام وأخذ يدعوهم إلى السلم والوئام، ونبذ الحروب والشخناء التي لا تولد سوى الدمار والفساد. ولذلك فإن القرآن جعل غايته أن يدخل الناس في السلم جميعا، فنادى لمؤمنين بأن يتخذوه غايته عامة، قال الله عز وجل مخاطبا أهل الإيمان: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً [82]. بل إن من صفات المؤمنين أنهم يردون على جهالات الأخرين بالسلم، فليكن السلم هنا مسلكا لردّ عدوان الجاهلين، قال تعالى: هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا [83].

ذلك أن مسلك السلم لا يستوي ومسلك العنف، ومسلك العفو لا يستوي ومسلك الانتقام، ومسلك اللين لا يستوي ومسلك الشدة والغلظة، ولذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو ويوصي دائما أصحابه بالدفع بالتي هي أحسن، والإحسان إلى المسيئين، مصداقا لما قال تعالى

[81]. رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأدب، رقم الحديث : 1430

[82]. البقرة، 208

[83]. الفرقان، 63

موصيا سيد الخلق صلّى الله عليه وسلّم: وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ [84].

لا إكراه في الدين: سلم دون تلفيق

الإسلام رسالته واضحة، والنبي صلّى الله عليه وسلّم كان واضحا وسيبقى دينه واضحا للعالمين، بأن هناك فرقا بين احترام حرية الآخرين في اختيار ما يعتقدون وبين التلفيق بين الأديان. أو فيول أديان الضلالة. في الوقت نفسه لا يصح بحال من الأحوال إجبار وإكراه الآخرين على قبوله، ولذلك بين القرآن الكريم أن : لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ [85]. بل إن القرآن نفسه به أيات كثيرة تدعو إلى احترام عقائد الآخرين حتى ولو كانت فاسدة وغير صحيحة، وذلك لسماحة الإسلام حتى في مقابل أصحاب العقائد الضآلة التي لا قداسة لها في نظر الإسلام. وهذا هو منهج الإحسان في الإسلام الذي غايته تحقيق السلم.

المبحث الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد وصف الله تعالى في رسالته محمد صلّى الله عليه وسلّم المؤيدة بالقرآن الكريم في قوله تعالى: يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ [86]. وقوله تعالى ايضا: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ [87]. أي إن الخير سيظل في المجتمع ما دمت في ذلك المجتمع فئة تأمر بالمعروف

[84]. فصلت، 34
[85]. البقرة، 256
[86]. الأعراف، 157
[87]. آل عمران، 110

وتنهى عن الشر، بل إنه لا يتحقق للمجتمع الفلاح إلا بالتناصح وتوجيه بعضنا البعض. هذا كما قال تعالى: وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ [88].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة قال تعالى: لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا [89].

قال الإمام إبن كثير رحمه الله: هذه الأية الكريمة اصل كبير في التأسي برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أقواله وافعاله وأحواله. ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عزوجل صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين. ولهذا قال تعالى للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة: أي هلا اهتديتم به وتأسيتم بشمائله، ولهذا قال: لمن كان يرجو الله واليوم الآخر [90]. وكان عليه الصلاة والسلام حليما في تغييره للمنكر وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ينظر دائما إلى عواقب الأمور فإذا رأى في ذلك مفسدة صبر حتى يجد الفرصة المناسبة ويبين لصاحبها، وإذا لم تكن هناك مفسدة باشر تغيير المنكر بيده.

ومن اوضح الأمثلة عن ذلك حادثة تبول الأعرابي في المسجد وتسابق الصحابة رضي الله عنهم على توبيخه على هذه الفعلة وأخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم الأمر كله بالحلم والأناة ونهيه لأصحابه عن زجره وتوبيخه فقال: "لا تُزرِمُوه" ثم دعا بدلوٍ من ماءٍ فصُبَّ عليه[91].

وهناك أناس يأمرون بالمعروف ويتخلفونه، وينهون عن المنكر ويرتكبونه، ولا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إبتغاء مرضاه، انما رياء وسمعه، فهؤلاء من أخبث الناس نفسا، ومن أسوائهم

[88]. التوبة، 71

[89]. الأحزاب، 21

[90]. تفسير القرآن العظيم، ج 6، ص 391

[91]. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، رقم الحديث، 6025

عاقبة. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:" يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق اقتاب بطنه[92]، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمعُ إليه أهلُ النار فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهي عن المنكر وآتيه[93]. فعلم بذلك أن المقصود الأمر بالمعروف مع فعله، والنهي عن المنكر مع تركه.

إن للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر آداب يجب أن يتأدب بها، وأخلاق يجب أن يتخلق بها، إذ أنه لابد من الحكمة الموعظة الحسنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باستعمال أسلوب مناسب وكلام طيب من غير إفراط ولا تفريط، فهذا أدعى للقبول وحصول المراد، وأرجى للاقتناع وتحقيق الغاية. فقد قال الله تعالى: ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ[94].

بهذا الأصل سعى الإسلام إلى تكوين رأي عام موحد حول غاية سامية يستأصل نزعة الفساد أنّي وجدت لا يسكت عنها. وبهذا عمل خير سعيا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإصلاح الأمة ومعالجة الاخطاء المتفشية بين أفرادها، بهذا العمل نخطو نحو تحقيق حياة أفضل للمجتمع الإسلامي خاصة ولكل من اختلط بالمسلمين وجاورهم على وجه العموم.

الخاتمة

قد تم بفضل الله عز وجل وعونه وتوفيقه هذا العمل المتواضع، ولا يبقى لي إلا أن أستخرج منه النتائج التي توصلت إليه من خلال هذا البحث، سأقتصر على ذكر أهمها وهي: إن الدين الإسلام هو روح المجتمع في المدنية المنورة في كل زمان ومكان، فدين الإسلام دين المدنية الحقة،

[92]. أي تخرج أمعاؤه

[93]. متفق عليه، البخاري في صحيحه، 3267، ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة ، 1238

[94]. النحل، 125

ومحمد صلّى الله عليه وسلّم وكتابه هما السبب الأعظم لتخليص العرب والعالم من خلال الجهل وكسر قيود الإنحطاط الدنيوي، والمادي، والشرك عن عقول أهلها. إن المجتمع الإسلامي الأول تكون في المدينة لا في مكة. إن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي تسوده روح الإسلام وبتعاون أعضاؤه – أيا كانت ديانتهم- فيما يحقق الخير للمجتمع.

المصادر والمراجع

الإسلام روح المدينة، مصطفى الغلاييني؛ طبعة بيروت، سنة 1326 هـ/ 1908 م.

الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شَلتوت؛ دار الشروق – القاهرة، ط 18، سنة 1421هـ/ 2001م.

الإسلام وحقوق الإنسان، محمد عمارة؛ عالم المعرفة – بيروت.

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني؛ دار الكتب العلمية – بيروت.

أنظمة المجتمع والدولة في الإسلام، محمود عبد المولى؛ الدار العربية للكتاب – طرابلس الليبية، سنة 1988م.

تفسير القرآن العظيم لابن كثير؛ بتحقيق سامي بن محمد السلامة، دار الطيبة – الرياض، ط 2، سنة 1420هـ/ 1999م.

الرأي والمشورة، محمد ألداه بن أحمد؛ طائر العلم للنشر والتوزيع – جدة، سنة 1419م.

الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري؛ دار الفكر – بيروت، سنة 2008م.

الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام؛ طبعة القاهرة، سنة 2003م.

روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبّاره؛ دار العلم للملايين – بيروت، ط 33، سنة 2003م.

روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري؛ وكالة شؤون المطبوعات والبحث وزارة الشؤون الإسلامية – الرياض، ط 1، سنة 1424هـ.

السلام العالمي والإسلام، سيد قطب؛ دار الشروق – القاهرة، ط 12، سنة 1413هـ/ 1993م.

السيرة النبوية لابن هشام (ت: 183هـ)؛ مطابع الوفاء – المنصورة مصر، ط 1، سنة 1995م.

صحيح البخاري؛ دار البيان الحديثة – القاهرة، ط 1، سنة 2002م.

صحيح مسلم بشرح النووي؛ المطبعة المصرية بالأزهار – القاهرة، ط 1، سنة 1347هـ/ 1929م.

صحيفة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لأهل المدينة دراسة لمحتواها ودلالاتها على تنظيمهم، صالح أحمد العلي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، م 27، ع 64،سنة 2003م

الطبقات الكبرى لابن سعد (ت: 230هـ)؛ الجزء الثالث، تحقيق: على محمد عمر، القاهرة، ط 1، سنة 1421هـ/ 2001م.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)؛ دار المعرفة – بيروت.

فقه السيرة، رمضان البوطي؛ دار الفكر – بيروت، سنة 1993م.

فقه السيرة، محمد الغزالي؛ دار الشرق – القاهرة، سنة 2000م.

المجتمع الإسلامي، احمد شلبي؛ مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط 9، سنة 2000م.

المجتمع الإسلامي في ظل العدالة، صلاح الدين المنجّد؛ دار الكتب الجديد – بيروت، ط 3، سنة 1976م.

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبي صلّى الله عليه وسلّم والخلافة الراشدة، محمد حميد الله؛ دار النفائس – بيروت، ط 6، سنة 1987م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (ت: 546 هـ)؛ دار الكتب العلمية – بيروت، ط 1، سنة 2001م.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي دار الكتب المصرية – القاهرة، سنة 1364هـ/ 1945م.

الوثيقة النبوية والأحكام المستفادة منها، جاسم محمد راشد العيساوي؛ كتبة الصحابة – الإمارات الشارقة، ط 1، سنة 2006م.